

الهجرة مأساة إنسانية تلهم الأدباء والفنانين

باريس - نُصدم دائما بالكوارث الناجمة عن الهجرة غير الشرعية، وغرق القوارب وضياع أحمال الشباب وحياتهم، أثناء محاولاتهم الخروج من بلدانهم والبحث عن أحلامهم على ظهور قوارب الموت.

أما من يتمكن من النجاة ويصل منهم إلى أوروبا، فيبدأ رحلة أخرى من الهروب، وإذا ما سويت وضعيته القانونية يعيش مشكلة الهوية، في جانبها الثقافي والاجتماعي حيث يشعر الكثير منهم بضياع هويته الثقافية والاجتماعية بحكم تغير اللغة والعادات بالإضافة إلى مؤسسات الصهر الاجتماعي، وهو ما ينتج عنه حالة من التصدى للتأكيد على الهوية والانتماء ومحاوله للتوائم مع الثقافة الجديدة. هذه القضية قاربتها الآداب والفنون بجرأة كبيرة، وكشفت جل جوانبها وخفاياها. فنذكر مثلا من الكتب التي تطرقت لثيمة الهجرة رواية "العار من الضفتين" لعزت القمحاوي، التي تتناول قضية الهجرة غير الشرعية من خلال قصة شاب يبحث عن ابن أخته الذي ركب واحدا من المراكب التي تحمل الشباب المصري إلى إيطاليا.

وتقول براك إنها رغبت -في بداية الأمر- في الحديث عن النساء، لأنها كانت تعتقد أنهن قابعات في أسفل السلم، لكنها اكتشفت أن هناك من هم تحته في الترتيب، الا وهم المهاجرون.

وهكذا قررت المخرجة المضي قدما في مشروعها، فاختارت أن تكون إحدى بطولتيه ذات شعر قصير وجسم مضطرب، تعمل في تنظيف القطارات؛ أما الثانية فهي امرأة تقدم على قتل زوجة صديقها عن طريق الخطأ. ومع الفروقات بين المرأتين، إلا أنهما ربطتا صداقة قوية وعمقتا معا في تهريب المهاجرين.

ويُتت المسلسل الذي يتضمن ثمان حلقات على المنصات الإلكترونية. وتحيل طريقة إخراجها إلى المسلسلات الأميركية، فهي تظهر جماليات الطبيعة في الشمال الفرنسي وتنعج بالإحاديث المضحكة أحيانا والمأساوية أحيانا أخرى.

ولم تتأخر الأفلام التي تناولت العشرات منها قضايا الهجرة مثل الفيلم الوثائقي الدرامي FIRE AT SEA الذي يسرد قصة مركب يقل نساء واطفالا في عرض البحر، وقد عصفت الأمواج به بينما يحاولون الاتصال بالسلطات ولا أحد يعيهم.

كذلك نجد فيلم "LA PIROGUE" وفيه يتحول صياد سمك إلى قائد لزورق، دون خبرة سابقة، يحمل 30 رجلا في طريقهم لإسبانيا، في رحلة مثيرة وخطيرة.

أما فيلم "أوديسي العراقة" فيسرد اللاجئ قصته بنفسه، جمع المخرج العراقي السويصري سمير جمال الدين حكايات عائلته، ليضمها في فيلم وثائقي ذاتي، تحكي فيه عائلته ملحمة خروجه من بغداد، ملحمة تحاكي في صعوبتها رحلة أوديسيوس في سبيل العودة إلى بئلوب.

وللفنون التشكيلية كذلك نصيبها من تناول هذه القضية الراهنة، ففي الوقت الذي ارتفعت فيه حدة الهجرة غير الشرعية من الجنوب نحو الشمال إلى درجة باتت قضية عالمية، اقتنص الفنان التشكيلي الجزائري عامر هاشمي تلك الظاهرة العالمية ليترجم جوانبها المحزنة في لوحات تشكيلية، قدمها سابقا في معرض بعنوان "غرقى في البحر المتوسط".

ولنفهم راهنية القضية فقد تأسس في فرنسا "متحف الهجرة" في فترة الرئيس فرنسوا هولاند وبيات من أهم المعالم الفنية والثقافية، يقدم فيه المهاجرون واللاجئون أعمالهم التي تلقى إقبالا هاما.



أفلام صورت رحلة الموت والأحلام المتلاشية



الصوفية ثقافة متعددة الألوان

ثمانون طريقة صوفية في مصر رهانها التعايش كيف نجحت الصوفية في ترسيخ ثقافة التسامح مع الآخر

الإيمانية التي أقرتها الشعائر السماوية، دون الميل إلى لفة على حساب أخرى، أو جنس على حساب جنس آخر، لقوله تعالى "لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعةً وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلْنَا أُمَّةً وَاحِدَةً".

ولطالما اهتم التصوف وناشد أتباعه وكل من انتمى إليه ففكر أو سلوكا أو الغيظ والترفع عن سفاسف الأمور والاشتغال بذكر الله، وهو بهذه الصفات استطاع بكل رسوخ النقاء على الحيات صراعات الفرق والمذاهب الأخرى. فنجده قد تبني ثقافة التسامح وعاشها واقعا من خلال فهمه لكتاب الله وفهمه للآيات الكريمة ذات الصلة، وفهمه وأقنائه باخلاق رسول الله، في حين أن أخلاق وسلوك الصوفي المتسامح لا يعني التنازل عن الثوابت الشرعية التي أمر الله بها ونهى عنها.

**التصوف اهتم كثيرا
بخلق التسامح بينه وبين
الآخر سواء كان لهذا الآخر
فكر أو مذهب أو عقيدة
مختلفة**

ولفت سيد أحمد إلى أن الطرق الصوفية استعجبت منذ بداية نشأتها في عصورها الأولى صفة الجدل الذي يوصل صاحبه إلى نتيجة راضية بالنسبة إليه، لذلك نادوا بمبدأ "الجدال" فقال -بمعنى البعد عن التخاصم أو العناد أو التشاحن ولو على مستوى القول، لما يؤديه في نهاية الأمر من الغضب والفرقة التي تعلق الباب أمام هذا الآخر في نقاش يعتمد على الإصغاء وتبادل الحوار في المستقبل، والإقناع عن طريق العائشة بينه وبين الآخر، وترك حرية الاختيار في نهاية الأمر لهذا الآخر. ويوضح أن الطرق الصوفية اعتمدت في نشر مبدأ التسامح والقبول والتعايش مع الآخر على عدة محاور - مبادئ منها أولا استخدام عصر المعلومات من خلال تطوير وسائل الاتصال التي تربط بين أفرادها وبين ربوع الوطن المصري والعربي على حد سواء. ثانيا انتقاء طبيعة الرسائل التي تتدفق من خلال هذا الوسيط الاتصالي وتطبيقاتها في مجال الإعلان عن أنشطة الطرق الصوفية وبين أتباعها، وسرعة تدفقها وطرق توزيعها واستقبالها.

كما اعتمدت ثالثا على وسيط إعلامي، وعادة ما يكون من خرجي جامعة الأزهر المعروفين بالوسطية والاعتدال، يكون من شأنه تمثيل الطرق المختلفة عن نظرتهم إلى قرنائهم المسلمين، فالجمع المتعددة وطني شامل الأخلاق والمعاملة للأهالي وبعضهم البعض. فالكل يدعو إلى طمانينة النفوس، والارتباط بالله في غير تكلف أو مشقة، وإنما النفس

وهكذا يتعامل الصوفية مع بقية المذاهب الإسلامية الأخرى بمقتضى قول النبي "من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم".

ولهذا استوعبت الطرق الصوفية كافة الطوائف والمهن والثقافات والشرائح الاجتماعية داخل ربوع الوطن العربي والإسلامي وخارجه أيضا، حتى المخالفة في أفكارها الداعية إليها. ويضيف "تبرز في حياة المجتمع المصري مثاليات الصوفية بما هيأت عبر القرون من تسامح فكري وتذوق الشعب طعم الوثام وازدهار العبادات وانطلاق الفنون والآداب، في إطار مطالعة عوالم الراي والفكر في تحرر خلاق. ومن أهمها الآداب المورثة في حلقات الورع والذكر والأنشيد وتكرى أولياء الله الصالحين، وغيرها من المناسبات الدينية الخاصة في مسالك الطرق الصوفية، وما تعنيه من مبادئ صلبة وممارسات حية للملايين من الأسر على مر العصور".

ويتابع سيد أحمد أن الطريقة الشاذلية نسبة إلى الشيخ أبو الحسن الشاذلي اتخذت منهج التسامح وقبول الآخر أحد الأسس التي قامت عليها دعائهم، سواء كان بين أتباعها داخل الطريقة أو داخل المجتمع التي تقدم لصالحه خدمات تقدم من الطريقة لأفراد هذا المجتمع، على المستوى المحلي أو المستوى العام داخل ربوع المجتمع، والدافعة في الوقت ذاته إلى الأمن والاستقرار لأفراد المجتمع، لشدة الاحتياج إلى هذا السلوك والفهم الاعتقادي الذي يؤدي إلى التنمية الشاملة داخل المجتمع المصري.

الصوفية والتسامح

يؤكد الباحث أن التصوف اهتم كثيرا بخلق التسامح بينه وبين الآخر، سواء كان لهذا الآخر فكر أو مذهب أو عقيدة مختلفة، أو حتى دين غير هذا الدين الذي يدين به التصوف الإسلامي بشكل خاص. حيث يمثل التسامح لدى الصوفية منبعاً من منابع الرسالات السماوية التي يستمدون منه روحانية التصوف وصفاته الزاهية. ويمثل حرص الصوفية على التكافل والامتزاج، والتزاوج الداخلي والخارجي، وإحسانهم صنعا بإتقان لغاتهم واحترام عاداتهم والتقدم بهذا المنهج الإثنولوجي الرائع لنشر الصوفية، يمثل ذلك كله لب التسامح في أسمى معانيه.

ويشير سيد أحمد إلى أن الصوفية المسلمين ينظرون إلى المتصوفة من غير المسلمين نظرة غير مختلفة عن نظرتهم إلى قرنائهم المسلمين، فالجمع المتعددة وطني شامل الأخلاق والمعاملة للأهالي وبعضهم البعض. فالكل يدعو إلى طمانينة النفوس، والارتباط بالله في غير تكلف أو مشقة، وإنما النفس

الصوفية ليست فرقة واحدة بل هي متعددة، لكنها نجحت في الوصول إلى كل المناطق العربية وأكثرها بعدا، كما نجحت في أن تصبح ثقافة شعبية، مازالت ملاحها موجودة وظاهرة إلى اليوم رغم خفوت المد الصوفي. وربما نحن اليوم في حاجة ماسة إلى الصوفية التي تعتبر حاضنة هامة للتسامح والتعايش، وهذا يتطلب بداية فهمنا لها.

خاصة والطرق الصوفية الأخرى عامة، حيث يعرض لمفهوم التسامح وقبول الآخر بوصفهما أساس الحياة الفكرية والروحية للطرق الصوفية.

يقول الباحث إن أولياء الله الصالحين الوافدين بثقافتهم المختلفة عن تلك الثقافة التي تحيا بداخلها قد تبادلوا المفاهيم الصوفية والأفكار الخاصة بهذه الثقافات الوافدة علينا بالتأثير والتأثر ليس فقط على مستوى العلاقة التاريخية والاشتراك في البعد الوجداني الواضح فيها، بل تجاوزت العلاقة ذلك لتصل إلى تشابه بنوي ملفت من حيث السمات العامة والطموح إلى بناء ثقافة خاصة بعالم الأولياء وأتباعهم من المتصوفة على مر العصور، امتلك معرفتها الزهاد الأوائل، وأعاد صياغتها الأولياء من الرعيل الأول أمثال الجنيد وغيره، وحاولوا تطبيقها.

ويرى أنهم بالفعل نجحوا في توطيد دولتهم الأوليائية التي تبنت نوعا من الثقافة الخاصة بهم التي قد تكون امتزجت فيها بثقافات يونانية وفارسية وهندية، إلى جانب الرسالات الثلاث التي تباينت في تناولها لأفكار الصوفية ومبادئها على مر التاريخ من اليهودية إلى المسيحية وأخيرا الإسلام. بما أحدث إثراء للثقافة المتلقية نتج عنه تحول وتلاحق وتناسل لمفاهيم وأفكار جديدة في أفضية متعددة وعوالم متكاثرة. تبني فيها مجتمعا تلك الأفكار الصوفية الوافدة إليه مع احتفاظه بخصوصيته الثقافية.

وليس ذلك فقط بل قام على تبنيها ودعمها في شكل من أشكال التغيير الثقافي والمزج بين ثقافتين احتاجت كل منها للأخرى لتعزز في ما بينهما المفاهيم التراثية والهوية العربية والدينية على حد سواء بين القديم والجديد والمواصلة بين الوافد والموروث.

ويرى سيد أحمد أنه كان لحركات الفتح الإسلامية لدول عربية وغير عربية أثرها في الاحتكاك الثقافي الذي استقى منه الصوفيون الأوائل أمثال ابن عربي والسهوردي والحلاج وغيرهم نظريات متعددة، استعانوا بها على تشكيل مناهجهم ونظرياتهم الصوفية الخاصة، وكان لمبدأ الحب في الله الذي اشتهرت به الزاهدة العابدة رابعة العدوية أثره الكبير في اتخاذ مبدأ التسامح وقبول الآخر، وإن لم يكن يدين بدين الإسلام، فهذه رابعة العدوية تشغل نفسها بحب الله الذي يملأ قلبها حتى لا يبقى مكان داخل هذا القلب لكره أحد حتى ولو كان الشيطان نفسه،

محمد الحماصبي
كاتب مصري



تمتد الطرق الصوفية في مصر بجذورها إلى القرنين الثالث والرابع الهجري وبيات من الظواهر الاجتماعية الثابتة التي تنتشر في ربوع البلاد، فغطت مساحتها الجغرافية كلها، حتى اللحظة الخاصة، فلم تكد تخلو قرية أو مدينة من اتباع هذه الطريقة أو تلك. وقد بلغت الطرق الصوفية في مصر الـ 80 طريقة، إلا أن أغلبها ينبثق في الأصل من 6 طرق كبرى هي "الرفاعية، والبديوية، والجيلانية، والشاذلية، والخلوتية، والدسوقية"، ولذا هي تشابه في أوراها وشروط الانتساب لها والمواصفات المطلوبة في شيخها وألية خلافة الطريقة.

التأصيل النظري

يتتبع الباحث عبد الحكيم خليل سيد أحمد في كتابه "الطرق الصوفية بين الوافد والموروث" قضية الوافد والموروث في الطرق الصوفية في مصر، مؤكداً أن التصوف يمثل ثقافة ذات جذور راسخة داخل المجتمع المصري بشكل خاص والمجتمع الإسلامي بوجه عام تتصل بالمشاعر العميقة للشعب، كما يمثل التراث الصوفي والحفاظ عليه مسكبا ثقافيا باعتباره جزءا لا يتجزأ من الهوية الوطنية، ويعبر عن التميز والتفرد القومي، وبالتالي تنمية الإحساس بالذات الثقافية والهوية الثقافية المتميزة نحو هذا التراث الشعبي.

انطلق سيد أحمد في كتابه، الصادر عن دار مصر العربية، من محاولة التأصيل النظري لظاهرة التصوف ومرآح نشأتها وتطورها وكيفية ظهور الطرق الصوفية داخل المجتمع المصري وعوامل انتشارها، عارضا لأوجه التشابه ومظاهر الاختلاف بينها، وكذا عرض للتنظيم الإداري لها وأنشطتها المختلفة، ليتطرق بعد ذلك لأولياء الله الصالحين وفلسفة الوافد الموروث المرتبط بالجانب القومي، وبالتالي تنمية مع البناء الاجتماعي للطرق الصوفية من حيث وسائل جذب المريدين وشروط الانضمام للطريقة والفئات الاجتماعية والانتشار الجغرافي لكل طريقة.

كما يتحدث عن تجليات الرمز الصوفي في الطريقة الرفاعية، وعالم الكرامات في الطريقة البديوية، واللغة الصوفية وإعادة الإنتاج في الطريقة النقشبندية، وأخيرا التسامح الصوفي وتقبل الآخر في الطريقة الشاذلية